﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾ [هود: 48]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد الاستطراد بذكر سؤالِ نوحٍ ﷺ ربَّه تعالى عن ابنه، وما جرى فيه من عتاب واستغفار وتوبة، رجع النّظم الكريم إلى استكمال قصّة الطّوفان، فقال المولى: "الّذي بيده ملكوت كلّ شيء، ومدبّر أمر العالم كلّه لنوح، بعد أن انتهى الطّوفان، وأقلعتِ السّماء عن المطر، وابتلعت الأرض ماءَها وصارت السّكنى على الأرض والعمل عليها سهلًا ممكنًا: ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾"[1]، فالمناسبةُ هي ابتداءُ أمرٍ جديدٍ بتكليفٍ جديدٍ في الحياةِ على الأرضِ، بعد انتهاءِ عهدِ الظُّلم والمعصيةِ والفسق.

بعد الاستطراد بالمعاتبة، عودٌ إلى استكمال الصّراع والمغالبة

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱهۡبِطۡ﴾: أصلُ (هبط): يدلُّ على الانحدار على سَبيلِ القَهْرِ[2]. والهُبُوطُ: نقيضُ الصُّعُود، يُقال: هَبَطَ يهْبِطُ ويَهْبُطُ هُبُوطًا إذا انْهَبطَ في هَبُوط منْ صَعُود. وهَبَطَ هُبُوطًا: نَزَلَ[3]. ويدلّ الهُبُوطُ على الانتقالِ مُطلقًا، والخُروجِ منَ البَلَدِ. والدُّخولِ فيها، فهو منَ الأضداد[4]، "وقد هبطنا أرض كذا وكذا: أي نزلناها، ويقال للقوم إذا كانوا في سفال: قد هبطوا يهبطون، وهو نقيض ارتفعوا"[5]. والمقصود بالهُبُوطِ في الآية: النُّزُولُ، والمُرادُ: النُّزُولُ منَ السَّفينَةِ؛ لأنَّها كانَتْ أعلى منَ الأرضِ[6].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/42.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (هبط).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (هبط).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (هبط).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (هبط).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/89.

2) ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾: أصل البَرْك صدرُ البَعير، ويقال له: بركة، وبَرَكَ البعير: ألقى بركه، واعتُبر منه معنى اللُّزوم والثَّبات، فقيل: ابْتَرَكُوا في الحرب، أي: ثبتوا ولازموا مَوضِع الحرب، وابْتَرَكَتِ الدّابة: وقفت وقوفًا كالبروك، وسُمِّي محبس الماء بِرْكَة. والبَرَكَةُ: ثبوتُ الخَيْرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ. قال تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96]؛ وسُمِّي بذلك لثُبُوتِ الخَير فيه ثبوت الماء في البركة. والمُبارَك: ما فيه ذلكَ الخير؛ ولمّا كان الخَير الإلهيّ يَصدرُ منْ حيثُ لا يُحسّ، وعلى وجْهٍ لا يُحصَى ولا يُحصر، قيل لكلِّ ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة: هو مُبارَكٌ، وفيه بركة[1]. والمقصود بالبَرَكاتِ في الآية: الخَيراتُ النّاميَةُ، وهي منْ كلماتِ التَّحيَّةِ مُستعمَلَةٌ في الدُّعاءِ[2].

3) ﴿أُمَمٍ﴾: أصلُ الأُمَّةِ: كلُّ جماعةٍ يجمعُهم أمرٌ ما، سواء كان ذلكَ الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا[3]، وهي جَماعَةٌ من النّاسِ أُرْسِلَ إلَيْهِم رَسُولٌ، سواءٌ آمَنُوا أو كَفَرُوا[4]. ومن مَعانيها: الشِّرْعَةُ والدِّينُ، يُقالُ: فُلانٌ لا أُمَّةَ له، أيْ: لا دِينَ لَهُ[5]، وكذلك كُلُّ مَن كان على دِينٍ حقٍّ مُخالِفٍ لِسائِرِ الأديانِ فهو أمَّة، ويُقال لِكُلِّ جِيلٍ منَ النّاسِ والحَيوانِ: أُمَّةٌ[6]، والأمّة: الجماعة، قال الأخفش: هو في اللّفظ واحد، وفي المعنى جمع. وكلّ جنس من الحيوان أمّة. وفي الحديث: «لوْلا أنَّ الكِلابَ أُمَّةٌ منَ الأُمَمِ لَأَمَرْتُ بِقَتْلِها»"[7]، والجَمعُ: أُمَمٌ. والمرادُ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ﴾: الأممُ المؤمنةُ المتناسلةُ ممّن معه إلى يوم القيامة، وفي قوله تعالى: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾: هؤلاء الصنف الآخر[8].

4) ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾: أصْلُ المَتْعِ: بُلُوغُ الغايَةِ منَ الشَّيْءِ، يُقالُ: مَتَعَ النَّهارُ يَمْتَعُ مَتْعًا، أي: بَلَغَ غايَةَ ارْتِفاعِهِ، والماتِعُ: الجَيِّدُ البالِغُ الجَوْدَةِ[9]. والمَتاع في الأصْل: كلّ شَيْء ينتفَع بِهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (برك).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/90.
(3) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (أمّ).
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/319.
(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أمم).
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (أمم).
(7) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (أمّ)، والحديث أخرجه ابن حبّان، الحديث رقم: (5656)، والدّارميّ، الحديث رقم: (2008)، الحديث رقم: (503)، وأحمد، المسند، الحديث رقم: (20548)، والتّرمذي، الحديث رقم: (1489)، والنّسائيّ في السّنن الكبرى، الحديث رقم: (4773).
(8) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/215.
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).

ويُتبلَّغ بِهِ ويتزوَّد والفَناءُ يَأْتِي عليهِ في الدُّنيا[1]. والتَّمْتِيعُ: الإمْهالُ، وأيضًا: التَّعْميرُ، ومنْهُ قوْلُه تَعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥﴾ [الشّعراء: 205]، أي: أطَلْنا أعْمارَهُم[2]. والمقصود بـ التَّمتُّع في الآية: الانتفاع بالملائم، وبالنِّعمة مُدَّة تنقضي.

5) ﴿يَمَسُّهُم﴾: أصلُ (مسّ): يَدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ بِاليَدِ[3]، يُقالُ: مَسِسْتُ الشَّيءَ أمَسُّه مَسًّا لَمَسْتَه بِيَدِكَ، وهُو مجازٌ في إصابةِ الشَّيءِ وحُلُولِهِ، فَمنهُ مَسُّ الشَّيْطانِ، أي: حُلُولُ ضُرِّ الجِنَّةِ بالعَقْلِ، ومَسُّ سَقَرٍ: ما يُصِيبُ منْ نارِها، ومَسَّهُ الفَقْرُ والضُّرُّ: إذا حَلَّ به، وأكثَرُ ما يُطلَقُ في إصابَةِ الشَّرِّ، قالَ تعالى: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزّمر: 8]، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [يُونُس: 12][4]، "ومن المجاز: مسّه الكبر والمرض، ومسّه العذاب، ومسّه بالسّوط، ومسّ المرأة: جامعها، وماسّها: أتاها. وبينهما رحم ماسّة[5]، والمسُّ في الآية: مجازٌ في الإصابةِ بجامعِ الاتِّصالِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قِيل لنوح ﷺ: يا نوح اهبط من الجوديّ الَّذي استوت عليه السَّفينة، ممتَّعًا بسلامٍ وتحيّة منّا وبركات في المعايش والأرزاق، تفيضُ عليكَ، وعلى من معك، وعلى ذُرِّياتٍ يتناسلونَ منهم، ويتفرَّقون في الأرض، فيكونون أُممًا مُستقلًا بعضها من بعض، وأُمم من ذرّيتهم ليسوا على سنَّتهم من الإيمان والعَمل الصّالح، سنمتّعهم في الدُّنيا، فيستنفدون فيها طيّباتهم، ثمَّ يصيبهم في

سفينةُ النَّجاةِ هي مرحلةٌ بين زمانين قُصدَ منها نجاةُ المؤمنين ووعيد الكافرين

(1) ابن منظور، لسان العرب: (متع).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (متع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسس).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مسس)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/316.
(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: 2/213.

الآخرة أو فيهما معًا، عذابٌ شديدُ الإيلام. والسَّلام الَّذي هبط به نوح ومن آمن معه، دخل فيه كلُّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ من ذرِّياتهم، إلى يوم القيامة، وأنّ المتاع العاجل، والعذاب الآجل، دخل فيهما كلُّ كافرٍ وكافرةٍ، من ذُرِّياتهم إلى يوم القيامة[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

مكافأةُ الأوّابين سلامٌ من ربِّ العالمين

الجملة في قوله تبارك اسمه: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾، مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ ولذلك فصلت عن سابقتها، فكأنَّ سائلًا قد سأل: ماذا أجيب عن ذلك؟ فقيل: ﴿قِيلَ﴾[2]، فهي جواب منتظرٌ عمّا يقتضيه سَوق القصّة والمحاورة بينهم، فجاء الوصل مراعاةً لسياقِ المحاورة "بين نوح عليه السلام وربّه، فإنّ نوحًا عليه السلام، لمّا أجاب بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾، خاطبه ربّه إتمامًا للمحاورة بما يُسكّن جأشَه"[3]؛ فكانت هذه الجملةُ كالمكافأةِ له عليه السلام.

علّة بناء الفعل للمفعول:

الأحكامُ الخاصَّةُ تختلفُ في بنائِها عن الأحكام العامَّة في سياقٍ واحد

آثر النّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ التّعبيرَ بالفعل المبنيّ للمفعول؛ للدّلالة على "العظمة والجلال الّذي تكون الأمور العظيمة لأجله بأدنى إشارة"[4]، فمنشأُ التّعظيم أنّ الأمر الجليل بالهبوط، وإقلاع السّماء، وبلع الأرض، لمّا يعبّر عنه بفعلٍ خالٍ من الفاعلِ، والفاعلُ معلومٌ، دلّ ذلك على أنّ هذه الأفعال العظيمة، يسيرةٌ عند الملك الجليل، وهذا يدلّ على التّعظيم والجلال، كما أنّ علّة البناء للمفعول هنا، مقابل بنائه

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/42 - 43، والزّحيليّ، التّفسير الوسيط: 2/1046.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/296.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 12/88.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/296.

للفاعل في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾؛ لأنّه حكم شرعيّ إرشاديٌّ خاصٌّ بنوحٍ ﷺ، وأمّا الأمر بالهبوط من السّفينة، وغيره من تلك الأوامر، فسيقت للتّعظيم، لا سيَّما أنَّ الارتباطَ بأمورٍ تخصُّ النّاسَ، كما أنّ في ذلك البناء نسجًا على المنظوم السّابق، "ليجيء على وتيرة حكاية أجزاء القصّة المتقدّمة من قوله: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾، ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فحصل بذلك البناء قضاء حقّ الإشارة إلى جزء القصّة، كما حصل بالفصل قضاء حقّ الإشارة، إلى أنّ ذلك القول جزء المحاورة"[1].

بلاغةُ الكنايةِ:

البشارةُ نتيجةُ المصابرةِ، والدّعاء بالرّحمة والمغفرة

قوله جلَّ شأنه: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ كنايةٌ عن البشارة بالنّزول في أرض وفيرة الخير بأمنٍ وسلام تطمينًا لنوح ﷺ ومن معه، وإشعارٌ بالرَّحمةِ والمغفرةِ، وهذا ما يدفعُ الخوفَ والقلق الّذي كان يتغشّى نوحًا ﷺ، إثر دعائه وسؤاله، وما تبعه من عتاب الله تعالى له، فجاء قوله تعالى: ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾، إجابة لطلبه الرّحمةَ والمغفرة، وإعلامًا له بالقبول والرّضى.

فائدةُ أسلوبِ النّداء:

تخصيصُ النّداء، مكرمةٌ أثيرةٌ، ومكانةٌ رفيعةٌ

دلّ نداء نوح ﷺ في قوله عزّ ذكره: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ على مكانته الرّفيعة عند ربّه، فناداه باسمه تنويهًا به بين الملأ[2]، فافتتاح الخطاب بندائه وباستعمالِ أداة النِّداءِ (يا) وباسمه يفيد تخصيصه بمضمون الخطاب، وهو: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾، ومن المعلوم أنّ معه جمعًا من المؤمنين، وأنّهم سيشتركون معه بهذا السّلام والبركات، لكنَّ تخصيصَه وحدَه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/88.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/89.

بالنِّداءِ إشعارٌ بمكانتِه، وأنَّ له الحظوة العظيمة عند مولاه، وهو ما يدفع أيَّ شعورٍ أن يكون قد أتى شيئًا غيرَ مقبولٍ في سؤالِ اللّٰه تعالى.

نكتةُ إفرادِ المُخاطَبِ:

تعليمُ الأمَّةِ الاقتداءَ منهجٌ يقودُ إلى الارتقاء

جاء الأمرُ بالهبوطِ في قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ بخطابِ المفرد، موجّهًا الأمر إلى نوح ﷺ دون الّذين معه، فلم يقل: (وقال اهبطوا منها جميعًا)، وهم مأمورون بذلك كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿*وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١﴾ [هود: 41]؛ وذلك أنّ الآمرَ بالرّكوب هو نوح ﷺ، فخاطب به الّذين معه، وفي الثّانية خطابٌ منَ اللّٰه تعالى لنوح ﷺ، على وجه الخصوص؛ فخصّه به تكريمًا له، وإظهارًا لفضله ومكانته، وأنّ ذلك الإكرام بالنّزول بسلام وبركات، إنّما كان بفضل دعوته وصبره على قومه، والأمر بعد ذلك يعمّ الجميع، فإنَّ النَّبيَّ إمامٌ لأمَّته، فلا يشترك معها في الخطابِ، بل يُؤمر وهو يبلِّغ؛ لإيجاد القدوة المُطاعةِ، وهذا من بديع فوائد النِّكات البيانيَّة في تفصيل الاقتداءِ بخير البريَّة.

معنى الباءِ ودلالتُها:

الهبوط مصحوبٌ بالسّلام، مقترنٌ بالأمان

دلَّ حرفُ الباء في قوله جلّ شأنه: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ﴾، على المصاحبة والملابسة، أي: اهبط مصحوبًا بسلام منّا، والسّلام بمعنى التّحيّة، فمصاحبته مجازيّة[1]، ويحتمل فيها الدّلالة على الحال، ويكون التّقدير: بمعنى مصاحبة السّلام، فالجارّ والمجرور ﴿بِسَلَٰمٖ﴾ متعلّق بمحذوف يعربُ حالًا من فاعل (اهبط)، أي: متلبّسًا بسلام، أو مصحوبًا بسلامة وأمن وبركات[2]، والمعنى واحدٌ، وإن اختلف توجيههُ صناعيًّا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/89.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/163 - 164.

بلاغةُ التَّعريضِ بالتَّقييد:

الهبوط ابتداءُ عصرٍ جديد، وتوليةُ زمانٍ عنيد

قيّد النّظمُ الجليل الهبوطَ بأنّه ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾، للدّلالة على عهد جديد، وفصل من الحياة خالٍ من منغصّات المستهزئين، فجعل هبوطه مصاحبًا للسّلام من الله تعالى، والبركات النّازلةِ عليه، إيماءً إلى أنّه كان في ضيافة الله تعالى، وقد قال تعالى عن السّفينة: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: 13 - 14]، كما أنّ البشارة بالسّلام من الله تعالى، بشارة بالغفران، والسّلامة من الآفات الدّنيويّة، والمقصود به "الأمن والاطمئنان، فلم يَعُدْ هناك من الكافرين، ما ينغِّص على نوح ﷺ أمرَه، ولن يجد من يكدِّر عليه بالقول: ﴿جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ [هود: 32]، ولن يجد مَنْ يتّهمه بالافتراء"[1]، فهو تعريضٌ بالزّمانِ السّابقِ بأنّه كان خاليًا من السَّلام، وتصريحٌ بالكرامةِ لما بقِيَ في الأيّام القادمةِ.

نكتةُ تعيينِ جهةِ التَّقييدِ:

السّلام في الدُّنيا نادرٌ عزيزٌ، فإنْ وُجِدَ فهو منحةٌ يأتي من بعد محنة

أدخل النّظم الجليل (منْ)، في قوله تبارك اسمه: ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾، الدّالّة على الابتداء للدّلالة على مصدر السّلام، فقوله: ﴿مِّنَّا﴾ "تأكيد لتوجيه السّلام إليه؛ لأنّ (من) ابتدائيّة، فالمعنى: بسلام ناشئ من عندنا، كقوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس: 58]، وذلك كثير في كلامهم. وهذا التّأكيد يراد به زيادة الصّلة والإكرام، فهو أشدّ مبالغة من الّذي لا تذكر معه (من)"[2]؛ ولذا لم يذكر جهة السّلام، في مثل قوله جلّ شأنه: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦﴾ [الحجر: 48]، وقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝٣٤﴾ [ق: 34]، للحاجة لذكر جهة السّلام، في آية هود للمبالغة في الإكرام، حيث كان يحمل معه نواة البشريّة، وعدم الحاجة إلى ذكر

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 11/6487.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/89.

الجهة في (الحجر) و(ق) لوضوحِ الأمرِ وصراحته فيما يكون في الجنَّة من سلامٍ خاصٍّ، بخلافِ الدُّنيا فالسَّلام لم يكن موجودًا، فتقييدُه بالجهة أفاد توكيدًا وبيانًا مشابهًا للتَّوكيدِ. كما أنّ في هذا السّلام من الله تعالى، طمأنةً إلى دوام النّعمة، وانتفاء الهلاك، لتعلّق السّلام بالله تعالى "ومَن سلّمنا عليه فلا هلاك يلحقُه"[1].

دلالةُ الجمع بين السّلام والبركات:

جَمَع النّظم الكريم بين السّلام والبركات، في قوله تعالى: ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾؛ لأنّ السّلامة من الأذى والنّصَب والخوف والعَنَت الّذي لاقوْهُ في السّفينة وقبلها من قومهم، لا يكفي في إقامة الحياة والمجتمع الفتيّ الجديد، والشّروع في تكوين بيئة جديدة، فلا بدّ من رزقٍ وفير، للنّهوض بتكاليف التّجديد، فكان إتباع السّلامة بالبركة من الضّرورات اللّازمة. كما أنّ في ذلك إشارةً إلى قبول توبة نوح، وتقبّله في الصّالحين، "ولما كان الدّاعون بلفظ التّحيّة إنّما يَسألون الله بدعاء بعضهم لبعض، فصدور هذا الدّعاء من لدنه، قائم مقام إجابة الدّعاء، فهو إفاضة بركات على نوح السّلام ومن معه، فحصل بذلك تكريمهم وتأمينهم والإنعام عليهم"[2].

من مقتضيات الحياة السّعيدة، وفرة الخيرات، وسلامة الذّات

سرّ تقديم السّلام على البركات:

قدّم النّظم الجليل في قوله جلّ شأنه: ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ السّلامة على البركة؛ وذلك أنّ نوحًا ﷺ عندما خرج من "السّفينة عَلِم أنّه ليس في الأرض ما يُنتفع به من النّبات والحيوان، فكان كالخائف في أنّه كيفَ يعيشُ؟ وكيفَ يدفع جميع الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب؟ فأزال الله تعالى ذلك الخوف عنه بالبشارة، وبحصول السّلامة من العاهات، وسعةِ الرّزق والمهمّات"[3].

إزالة العاهات والمنغصّات، مقدّمٌ على سعة الرّزق والبركات

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/296.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/90.
(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 5/167.

نكتةُ اختلافِ قيودِ الألفاظ:

إذا تحقَّق السّلام من الله تعالى نزلتِ البركات في الحياة

قيّد النّظم الكريم السّلامَ بأنّه من الله تعالى، وجعل البركة بقيد ﴿عَلَيْكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾؛ وذلك لأنّ السّلام واحدٌ شاملٌ لكلّ شيء، فوحّده ونسبه لله تعالى تنويهًا بعظمة إحسانه؛ إذ بلا سلام لا معنى للبركات، أمّا البركات فمعلوم أنّها من الله تعالى، وهي بركات مهما كانت، فإنّها زائلة بزوال العمر والدّنيا، وهي نازلةٌ على نوحٍ ومن معه في الدُّنيا.

غرضُ تنكيرِ ﴿أُمَمٍ﴾:

طمأنةُ المخاطَبين بما يُحبُّون تبشيرٌ يدفع التّنفير

جاء لفظُ ﴿أُمَمٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ نكرةً؛ للدّلالة على التّكثير والشُّيوعِ، حيث "جعل سبحانه منهم أممًا مع أنّهم عشرات أو على الأكثر مئات، ذلك لأنّهم آباءٌ لجماعاتٍ مؤمنة طاهرة، أي: ستكون منهم ذرّية طاهرة، ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: سيكون ممّن معك أممٌ صالحةٌ وأخرى ظالمةٌ"[1]. والغرض من ذلك تبشير نوح عليه السلام ومن معه بأنّ ذرّيتهم باقية محفوظة، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس: 41]، كما أنّ في ذلك تخفيفًا عليهم؛ إذ رأوا هلاك النّاس، فشعروا بخلوِّ الأرض من البشريّة؛ فطمأنهم بأنّه سيكون بعدهم أممٌ كثيرة.

معنى حرفِ (من) ودلالتُه:

منشأُ أمم الأرضِ من بعد نوحٍ عليه السلام

دلّ حرف الجرّ (منْ) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ على "ابتداء الغاية أي: ناشئة من الّذين معك، وهم الأمم المؤمنون إلى آخر الدّهر"[2]، فالأمم لم تكن حاصلةً يوم النّجاة والهبوط، بل إنّ ابتداء نشأتها كائنٌ من الّذين نجوا. وأجاز بعض أئمّة التّفسير أن تكون (من) بيانيّة، والمعنى: أي وعلى أُممٍ هم الّذين معك[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3713.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/164.
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/196.

نوعُ الواو وبلاغتُها:

التَّعريضُ بمن خالفَ منهجَ أصحابِ السَّفينةِ فأتى بالمعاصي الدَّفينة

افتتح النّظم الكريم قوله جلّ شأنه: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ بالواو الدّالّة على الاستئناف البيانيّ؛ لأنّها تبيينٌ لما أفاده التّنكير، في قوله: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ من الاحتراز عن أمم آخرين، وأصْلُها الواوُ العاطِفَةُ، وبَعْضُهُمْ يُرْجِعُها إلَى الواوِ الزّائِدَةِ، ويَجُوزُ أنْ تَكُونَ الواوُ لِلتَّقْسِيمِ، والمَقْصُودُ: تَحْذِيرُ قَوْمِ نُوحٍ مِن اتِّباعِ سَبِيلِ الَّذِينَ أُغْرِقُوا، والمَقْصُودُ مِنْ حِكايَةِ ذَلِكَ في القُرْآنِ التَّعْرِيضُ بِالمُشْرِكِينَ مِنَ العَرَبِ، فَإنَّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ ولَمْ يَتَّبِعُوا سَبِيلَ جَدِّهِمْ، فَأُشْعِرُوا بِأنَّهُمْ مِنَ الأُمَمِ الَّتِي أنْبَأ اللَّهُ نُوحًا بِأنَّهُ سَيُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ عَذابٌ ألِيمٌ[1]، فالاستئناف لبيان حصر البركة والسّلام بالّذين كانوا مع نوح ﷺ مؤمنين صالحين، ففي "قطع الجملة الثّانية بالابتداء عن سَنَنِ الجملة الأولى الدّلالة على أنّ التّمتّع الجسمانيّ والاشتغال به يخرج الإنسان عن حكم الصّالحين من عباده، وأنّ التّبتل إلى الله يدخله في زمرة الأنبياء والصّالحين"[2]، فسيق ذلك لذمّ ذلك السَّنَن وبيان أنّهم خرجوا عمّا ذُكر من السّلام والبركات.

غرضُ حذفِ المسندِ:

ذريّةُ المحمولين في السَّفينةِ مؤمنٌ وكافرٌ

الخبر في قوله عزّ ذكره: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إمّا أن يكون ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾، وإمّا أن يكون محذوفًا للإيجاز، تقديره: (ومنهم أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ)، ويكون ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ صفةً، ووجهُ الحذفِ دلالةُ ما سبق عليه ﴿مِّمَّن مَّعَكَ﴾، وهو بيان لاختلاف الأمم النّابتة بعد نوح في الإيمان والكفر، أي: أممٌ معك وأممٌ ليسوا معك. وهذا التّقدير يدلّ على التّبعيض، أي "أنّ بعضَ مَنْ يتشعّب منهم ليسوا على صفتهم، يعني ليس جميعُ من تشعّب منهم مسلمًا ومباركًا عليه، بل منهم أممٌ ممتّعون في الدّنيا معذّبون في الآخرة"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/91.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/99 - 100.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/215.

بلاغةُ الاحتراسِ في التَّكرار اللَّفظيّ:

مـدحُ الاجتماعِ في أمَّـةٍ باعتبارِ المعـيَّـة والـذَّمُّ بـاعـتـبـارِ المتع الدُّنيويَّة

تكرّر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ لفظُ ﴿أُمَمٖ﴾ والتّكرار للتّنويع، وبيان الاختلاف، فهو للتّقسيم والتّعديد، "فالمراد من هذه الآية تقسيم ذريّة أولاد نوح إلى فريقٍ مؤمن، وفريق كافر، لا تقسيم من كان معه في السّفينة، إذ كانوا كلّهم مؤمنين"[1]، فهم أممٌ متحزِّبةٌ، وجماعاتٌ متفرِّقةٌ، فيشمل الأممَ الصّالحة والأقوام الطّالحة، أمثال قوم هود، وصالح، ولوط، وشعيب[2]، فلفظُ الأمم لا يُراد منه المدحُ المحض أو الذَّمُّ المحض، بل بيان أنَّ النّاس ستختلف على جماعاتٍ كبيرةٍ، يشملها ناسٌ كثيرون، منها أممٌ يغلب عليها الفلاحُ، ومنها أممٌ يلفُّها الشَّقاء، وعليه جاء اختيارُ لفظٍ لا يختصُّ بنوعِ مدحٍ أو ذمٍّ، بل بوصف النّاس في عموم الالتقاءِ، والمدحُ كان بقيدٍ زائدٍ على أصل اللفظ، وهو المعيَّة، والتَّمتيع، فمن التزم معيَّةَ الصّالحين كان معهم، ومن آثر متعَ الحياةِ الدُّنيا فهو منغمسٌ فيها، فاختيارُ لفظِ ﴿أُمَمٖ﴾ يُفهم منه الاحتراس عن فهم المدحِ أو الذَّمِّ لمجرَّد كونهم أممًا، وهذا من بديعِ البيان القرآني في اختيارِ مفرداته.

بلاغةُ المجازِ بحذف المضافِ:

الهدى والضّلال فـــي ذريّـــات الأمـــم يتنقَّل بينها بمحضِ اختيارِها

حُذِفَ المضافُ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾، فيدخل في السّلام المذكور كلُّ مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، ويدخل في التَّمتيعِ والعذاب كلُّ كافرٍ كنودٍ إلى يوم القيامة، والتّقدير: وعلى ذريّة أمم ممّن معك، وذريّة أمم سنمتّعهم. فأراد الله سبحانه بالأمم الّذين كانوا معه مَن صار مؤمنًا من ذرّيتهم، وأراد بقوله بالأمم الّذين يمتّعهم مَن صار كافرًا من ذرّيتهم إلى

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/196.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الزّريّ الجامع: 12/43

يوم القيامة[1]، فجعل سبحانه منهم أممًا؛ لأنّهم آباء لجماعات مؤمنة، ستكون منهم ذرّية طاهرة، أي سيكون ممّن معك أمم صالحة، وأخرى ظالمة[2].

خفّةُ تَكرارِ حرفِ الميم:

تكرار الصّوت الواحد بلا ثِقَل أو نشازٍ إشارةً إعجازٍ

تكرّر في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾، حرف الميم عشر مرّاتٍ، وفي الآيةِ ثماني عشرةَ مرَّة بالتَّجاورِ والتَّتابع والفكِّ والإدغام، وهذا يصعب إتيانُه مع خلوٍّ من نشازٍ أو ثِقَلٍ في عموم الكلام العربيِّ، لكنَّه هنا جاء على أبدعِ ما يقع فيه الصَّوت من الأذن، واللفظ من اللِّسان، فجاء خفيفًا سائغًا للسّامعين مع إعجاز وتفرّد.

بلاغةُ بديعِ فنِّ الاحتباك:

اكتفاء الجملتين بدلالة المذكور في إحداهما على المقدَّر في الأخرى

في قوله جلّ شأنه: ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ احتباكٌ[3]، فقد "ذَكَرَ البركاتِ والسّلامَ أوّلًا دليلًا على نفيهما ثانيًا، والمتاع ثانيًا، دليلًا على حذفه أوّلًا"[4]، وتقدير الكلام: بسلام وبركات على أمم ممّن معك سنمتّعهم في الدُّنيا متاعًا قليلًا، وأمم لا سلام ولا بركات عليهم وإنَّما هو التَّمتيع.

دلالة العطف بـ حرف التَّراخي:

تجليّات طول الزَّمان في الوعد والوعيد سنَّةٌ لا تتبدَّل

آثر النّظم الكريم أن يستعمل حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ اقتضاءً للواقع، فإنّ مجيء الأمم المذكورة الّتي سيصيبها العذاب في الدُّنيا أو الآخرة، أو في كليهما إنّما يكون بعد تراخي الزّمن وطوله، فـ ﴿ثُمَّ﴾ مستعملة للتّرتيب والتّراخي.

---

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/197.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3713.

(3) الاحتباك: هو "القول المركّب من أجزاء فيه متناسبة، نسبة الأوّل منها إلى الثّالث كنسبة الثّاني إلى الرّابع، أوْ ما كانت النّسبة فيه كنحو ذلك، فاجتزئ من كلّ متناسبين بأحدهما، لقطع الدّلالة ممّا ذكر على ما ترك". يُنظر: السّجلماسيّ، المنزع البديع، ص: 195.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/297.

سرُّ التّعبير بصيغةِ المضارع:

مسُّ العذابِ متجدِّدٌ على الدَّوام لا يتحوَّل ولا يتبدَّل

عبّر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عن مسِّ العذاب للأمم المتَّعة بالفعل المضارع؛ للدّلالة على أنّ العذاب عند وقوعِه لن يكون عذابًا منقطعًا بل هو مستمرّ ودائم فيهم، وهو ما يُرشِّح أن يكون المقصودُ بالعذابِ عذابَ الآخرةِ، أو أن يُحمل على عذابِ الدُّنيا ويكون وجودُه باستمرارِ وجودِهم، كما أنّ فيه دلالةً على استجلاب الصّورة لتصوير المشهد.

دلالة تقييد العذاب:

ورودُ العذابِ من الله ترهيبٌ، وكفرُ العبيد عجيبٌ

قيّد النّظم الجليل العذاب في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بكونه حاصلًا من الله تعالى، للدّلالة على تعظيم العذاب؛ فكون العذاب صادرًا من الله تعالى، فإنّه عذابٌ مكتسبٌ أشدّ الصّفات، وعبر عن العذاب بضمير التّعظيم (نا)، إيغالًا في تعظيم العذاب وتشديدًا على مستحقيه.

علّة تقديم شبه الجملة:

تقديم كون العذاب من الله تعالى أبلغ في بيان شدّته

قدّم النّظم شبه الجملة ﴿مِّنَّا﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على الفاعل، وأصل الكلام: (يمسّهم عذاب أليم منّا)؛ وذلك أنّ تعظيم العذاب، بكونه صادرًا من الله تعالى أشدّ في بيان عظمته من تنكيره ووصفه بكونه أليمًا، فالتّقديم لتهويل المذكور قبل ذكره، كما أنّ فيه مراعاةً للفاصلة القرآنيّة حفاظًا على النّسق الصّوتي.

دلالةُ تنكيرِ: ﴿عَذَابٌ﴾:

تنكيرُ العذابِ تهويلٌ له، وتأكيدٌ على فظاعته

آثر النّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عن العذاب بصيغة التّنكير، في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، تعظيمًا لشأنه، وتهويلًا لشدّته، فهو عذابٌ غيرُ معروفٍ ولا معهود للسّامع، فجاء التّنكير إخبارًا عن حقيقة كونه ليس معلومًا؛ ليذهب السّمعُ في تخيّل العذاب

الكائن من اللّه تعالى مذاهبَ شتّى، في تصوّر شدّته وفظاعته وهوله، فالتَّنكيرُ للنَّوع، إذ هو نوعٌ غيبيٌّ لم يعهد النّاس مثله في الدنيا، وهذا إذا قصرناه على عذابِ الآخرةِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الهبوطُ والنُّزول:

الهبوط وإن كان على سبيل القهر، فإنّه يمتاز عن النّزول بأنّه: "نزُول يعقبه إقامَة؛ ومن ثَمَّ قيل: هبطنا مَكان كَذا، أي نزلنا، ومنْه قَوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ [البقرة: 61]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾، ومَعْناهُ: انزلوا الأرْض للإقامة فيها، ولا يُقال: هَبَط الأرْض إلّا إذا اسْتَقرَّ فِيها، ويُقال: نزُول وإن لم يسْتَقرّ"[1]، فجاء التّعبير في الآية الكريمة بالهبوط؛ لأنّهم بعد نزولهم أقاموا ولبثوا في المكان.

الهبوط نزول إثْره إقامة، ويكون بلا إرادةٍ عادةً، خلافًا للنّزول

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 296.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك :978-9948-768-18-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي :978-9948-768-18-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»